نوابغ الفكر العربي

بديع الزمان الهمذاني

بقلم مارون عبود

حقاً إن هذه السلسلة التي وضعتها دار المعارف في مصر وسمتها : نوابغ الفكر العربي تمهد السبيل الى الاتصال برجال الأدب والفكر في القديم والحديث ، فانها تشتمل على خلاصة ما يصوّر كاتباً من الكتّاب أو شاعراً من الشعراء أو مفكراً من المفكرين فاذا تمت هذه السلسلة في يوم من الأيام فانها ستكون بمنزلة خزانةٍ للفكر العربي .

أقول هذا القول على شرط واحدٍ ، أن يكون واضع كل كتاب من هذه السلسلة قد أحاط بموضوعه من كل ناحية فلا يكاد يتفلت منه أفق من آفاقه ثم كثّف كلامه بعد هذه الإحاطة حتى يقول أكثر ما يمكن قوله في أقلّ ما يكون من البيان ، أما الذين يغيرون على مطوّلات الكتب فيمسخونها مسخاً ويسرقون أفكارها دون الإشارة الى كلّ سرقة في حاشية الصفحة مكتفين بذكر مصادرهم في الفهرست العام ، أما هؤلاء فانهم بعيدون عن أن يحققوا لدار المعارف ما ترمي اليه في وضعها سلسلة نوابغ الفكر العربي ولست أحب التصريح بالأسماء في هذا المقام وانما أكتفي بالتعريض .

أحمد الله على أن الأستاذ مارون عبود ليس من هذه الطبقة التي لم تنعم بانفراد الفكر واستقلال العقل وإنما الأستاذ من الذين يحترمون أنفسهم ويثقون بأذواقهم ويعتمدون في الكتابة على أفهامهم وعلى دقة هذه الأفهام ، لقد وضع كتابه : بديع الزمان الهمذاني بعد أن محّص هذا العبقري كل تمحيص بنظره الثاقب وفهمه الشامل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جرى في كتابه على الأصول المتبعة في سلسلة نوابغ الفكر العربي فأنشأ ثلاثة فصول : عصر بديع الزمان ، بديع الزمان في عصره ، جوانب بديع الزمان ، وبسط في فصل من هذه الفصول الثلاثة ما للبديع من صلة بعصره وما للعصر من صلة بالبديع ، فاذا تكلم على حالة اجتماعية في العصر الذي عاش فيه البديع فلا يخلو كلامه من الإشارة الى تفاعل العصر وآثار الهمذاني ، لقد عاش البديع في عصر ظهرت فيه آثار الاستبداد والغرق في النعيم كما ظهرت آثار الفقر والظلم فلم يغفل الأستاذ مارون عبود عن الإشارة الى أن رسائل الهمذاني كانت صورة هذه الحالة الاجتماعية وهذه هي فائدة تصوير عصر الأديب ولولا هذه الصلة بين الأديب وبين عصره لما كان لذكر الحالات الاجتماعية أو السياسية معنى من المعاني ، فالأستاذ مارون عبود لم يهمل ذكر هذا كله ولقد ذكره في أوجز عبارة دون شيء من الإضجار .

ثم اذا أفاض في ترجمة البديع ذكر الصلة بين حياته وبين آثاره ولولا ذكر هذه الصلة لم يكن للترجمة قيمة ولقد علقت بذهني عبارة قالها بعض كتاب الانكليز في حق أديب من الأدباء فقد قال : اذا أردنا أن نفهم فنّ هذا الأديب لزمنا أن نعرف دقائق حياته ، فالأستاذ مارون عبود بسط ما بسط من دقائق حياة البديع ولكنه كان ماهراً في التنسيق بين هذه الدقائق وبين فنّ صاحبها .

ولما وصل الى فن البديع جاء بالكلام الذي يدل على فهم دقيق وعلى ذوق صالح فقد فطن قبل كل شيء الى أن آثار البديع كانت صورة حالات اجتماعية كما كانت آثاراً أدبية فقد صوّرت حالات البؤس وفساد الأخلاق والترف والنعيم في بعض الطبقات ويعجبني تنبيه الأستاذ على تأثير العصر في فن البديع فاذا نبّه على تأنق البديع في إنشائه نبّه في الوقت نفسه على أن مصدر هذا التأنق إنما هو تأنق العصر في النعيم والترف ، وضّح الأستاذ مارون عبود هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلّه ووضّح خصائص فن البديع فتكلم على ميله الى الصناعة اللفظية والى السجع والإكثار من التشبيهات والاستعارات والكنايات وما يشابه ذلك ووازن بين فنّ البديع وفن الحريري موازنةً تدل على تعمق في الوقوف على أسرار الفن .

من خصائص البديع التهكم وقد ظللت أتتبع الأستاذ مارون عبود في كل كتابه لأصل الى آثار هذ التهكم حتى وصلت الى قوله في بعض المواضع : فهو يمجن ويمزح ويتهكم ... ولكني كنت أرجو أن يفرد الأستاذ لتهكم البديع سطوراً قليلة على نحو ما فعل في كلامه على مجامع نواحيه لأن التهكم في أدبنا غير كثير فاذا اهتدينا الى كاتب يميل الى هذا النوع فلا بأس باظهار صفات تهكمه فانا نعرف أن الجاحظ كان إمام المتهكمين ولكنا نعرف أيضاً أن تهكمه خبيث ولم يك مؤذياً فكنا نريد أن نعرف خصائص تهكم البديع واذا أردنا هذه المعرفة فلأنا نعيش في عصرٍ أصبح التهكم فيه أقوى سلاح لأنّ فيه مندوحة عن الشتم والقذف .

على أن مرور الأستاذ مارون عبود على هذه الناحية دون بسطها وشرحها لا يصرفنا عن توفيتنا إيّاه حقّ فضله وعن تهنئته بكتابه : بديع الزمان الهمذاني الذي دلّ على علمٍ وادب وفهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net